# التربية بين أصالة المصطلح وتكامليّة المنهج

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفىﷺ وآله الطيبين الطاهرينعليهم السلام. وبعد... عندما نستقرأ معنى مفردة التربية سنجد بأنّ المعنى الجامع للتربية هو: إيصال المتربّي إلى كماله المستعد له بالتدريج. وهذا المعنى لمفردة التربية مشابه ومقارب لما هو موجود في الفلسفة اليونانية وبالتحديد ما نُقل عن أفلاطون، حيث اشتهر عنه تعريف التربية بأنّها: "إعطاء الجسم والروح كلّ ما يُمكن من الجمال وكلّ ما يُمكن من الكمال"[2]. وهو ما نستخلصه من كلمات العلماء عند المسلمين، فقال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (385-460هـ): "الربّ وأصله التربية، وهي: تنشئة الشيء حالاً بعد حال حتى يصير إلى الكمال"[3]. وقال الملا محمد صالح المازندراني (ت 1086هـ): "الربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء من حدّ النقص إلى حدّ الكمال على سبيل التدريج"[4]. وقال السيد حسين البروجردي: "التربية: تبليغ الشيء إلى كماله أو حال أحسن من حاله، وبالجملة إلى كماله الحقيقي أو الإضافي شيئاً فشيئاً"[5]. وعرّفها

(1) رئيس تحرير مجلة الحياة الطيبة.
(2) سليمان، كامل، والعبد الله، علي، التربية، ص176-177.
(3) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج4، ص337.
(4) المازندراني، م.س، ج12، ص102.
(5) البروجردي، حسين، تفسير الصراط المستقيم، ج3، ص352.

آخر بقوله: "التربية الإسلامية هي تنمية جميع جوانب الشخصية الإسلامية الفكرية والعاطفية والجسدية والاجتماعية، وتنظيم سلوكها على أساس من مبادئ الإسلام وتعاليمه بغرض أهداف الإسلام في شتّى مجالات الحياة"[1].

وعليه فإن "التربية الإسلامية ذات طابع شمولي تكاملي لجميع جوانب الشخصية الروحية والعقلية والوجدانية والأخلاقية والجسمية والاجتماعية والإنسانية، وفق معيار الاعتدال والاتزان"[2].

وعندما نتأمّل في ما طرحه أهل اللغة في معنى التربية ومصدريّتها في اللغة العربية سنجد عدّة احتمالات:

الأول: أن تكون مصدراً من: رَبَا الشّيءُ، بمعنى: زاد ونما[3]. وارتفع وعلا[4].

الثاني: من ربَّ يرُبُّه ربّاً: مَلَكَه[5].

والثالث: رَبَوْتُ في بَني فلان أَرْبُو نَشَأْتُ فيهِم[6]. ومنها قول النبي ﷺ: "ربيت في بني سعد بن بكر"[7].

فالتربية في اللغة العربية ذات حقل دلالي واسع، يتضمّن العديد من المعاني، ويشمل الكثير من المفاهيم، ممّا يعني أنّ العملية التربوية ليست ذات بعد واحد، ولا تتعلّق بجانب واحد من جوانب بناء شخصية الإنسان، فالتربية هي مجموع عمليات مركّبة ومتشابكة ومتداخلة فيما بينها من أجل أن تصبّ في المحصّلة بخدمة هدف واحد، فهي حفظ

(1) رشيد ابراهيم، صبحي طه، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها، ص9.
(2) فاطمة، محمد خير، منهج الإسلام في تربية عقيدة الناشئ، ص52.
(3) يراجع: الفراهيدي، أحمد بن خليل، كتاب العين، ج8، ص283. وابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج1، ص400.
(4) ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص483.
(5) كتاب العين، ج8، ص256. ولسان العرب، ج5، ص94.
(6) لسان العرب، ج14، ص306.
(7) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص، ص187.

ورعاية وصيانة وحماية وحراسة وتنمية وتغذية وحسن قيام وتأهيل وتهيئة وحضانة وسياسة وإصلاح وتنشئة ووقاية ودفاع وإحاطة... إلخ، ولو دقّقنا النظر في كلّ هذه المعاني لوجدنا بينها قاسماً مشتركاً ومعنى وحدانياً تلتقي عنده كلّ أجزاء الشبكة وعناصرها، وهو إيصال الشيء إلى كماله[1]. وقد أشار العلماء المسلمون في تعريفاتهم السابقة للتربية إلى هذا المعنى بشكل واضح.

وأما في النصوص القرآنية والروائية، فيوجد عدة مرادفات لمفردة التربية، من أهمها مفردتي التزكية والتطهير حيث وردت بمادّتها في العديد من الآيات القرآنية، منها: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2]. والتزكية في اللغة بمعنى النماء والزيادة[3]. والزكاة: التطهير. والزكاة: الصلاح. والزكاة: الارتفاع والعلو[4].

وقد حمل المفسّرون معنى التزكية في الآية المذكورة وما يُشابهها على التطهير من الكفر والشرك والدنس والذنوب وخبائث الجاهلية وألواث التعلّقات الدنيوية... إلخ. قال السيد محمد حسين الطباطبائي: "التزكية تفعيل من الزكاة، بمعنى النمو الصالح، الذي يلازم الخير والبركة، فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحاً بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، فيكملون بذلك في إنسانيّتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم، يعيشون سعداء ويموتون سعداء"[5].



(1) يراجع: المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج4، ص 18-19. وقد ذكر تحقيقاً لطيفاً حول المسألة في ما يقارب الـ 9 صفحات : 15-23، تراجع للفائدة.
(2) آل عمران: 164.
(3) كتاب العين، ج5، ص394. الصحاح، ج3، ص1223.
(4) معجم مقاييس اللغة، ج2، ص468.
(5) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج19، ص264.

وباختصار التزكية هي: أن يفعل الإنسان كلّ ما يُصبح به هو أو غيره زكياً طاهراً صالحاً[1].

وكذا في مفردة التطهير في القرآن، حيث وردت مادة (ط ه ر) في القرآن بهيئات مختلفة، منها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2]. والطهارة في اللغة، بمعنى النقاء وزوال الدنس[3]. والنظافة والخلوص من الشائبات[4]. قال السيد الطباطبائي: "التطهير إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفى وجوده ويستعد للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته، والتزكية إنماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات"[5]. وكأن الفرق بين التزكية والتطهير، أنّ الأولى تحلية بالكمالات والثانية تخلية عن النواقص.

وتستعمل مفردة التربية في العلوم المعاصرة عند التربويين المعاصرين (المسلمين والغربيين)، بأحد معنيين:

- **الأول: التربية بالمعنى الأعم:** وتشمل تربية الإنسان في مختلف جوانب شخصيّته وأبعاد حياته، و"تتضمّن كلّ عملية تُساعد على تشكيل عقل الفرد وخُلُقه وجسمه"[6]. ويُستثنى منها الجوانب البيولوجية والفيزيولوجية والوراثية التي لا يلعب الاختيار الإنساني أيّ دور في تحديد معالمها _ مع الإشارة إلى وجود جوانب وراثية يلعب الاختيار الإنساني دوراً فيها، فيكون للتربية تأثير عليها، كما سيأتي في الدرس الخامس عشر_.

- **الثاني: التربية بالمعنى الخاص:** و"تعني غرس المعلومات والمهارات المعرفية من خلال مؤسّسات معيّنة أُنشئت لهذا الغرض"[7]. وقد تُطلق

(1) التبيان في تفسير القرآن، ج1، ص467. والطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج10، ص6.
(2) التوبة: 103.
(3) معجم مقاييس اللغة، ج3، ص428.
(4) معجم مقاييس اللغة، ج5، ص464. والصحاح، ج6، ص2514.
(5) الميزان في تفسير القرآن، ج9، ص377.
(6) مرسي، محمد منير، أصول التربية، ص8.
(7) ن. م، ص8.

التربية ويُراد بها المعنى الأخص أي خصوص التعليم المدرسي أو التمدرس schooling.

وبما أنّ التعليم عملية موجّهة إلى العقل والجانب الذهني، بإعطاء المعرفة والفهم والإدراك والتفكير، يبقى إحداث التغيير في السلوك فهو من آثار العملية التربوية ككل، فالتعليم أضيق من التربية، وواقع ضمن دائرتها، بل التعليم مقدّمة للتربية بمعنى التزكية.

ومن الأخطاء الشائعة عند البعض أنّه عندما تُطلق مفردة التربية ينصرف إلى أذهانهم المعنى الثاني للتربية، أي التربية بمعنى التعليم والتمدرس، وإن كان للمدرسة دور رئيس وحيويّ في بناء شخصية الإنسان نظراً إلى المقدار الزمني الذي يقضيه فيها، إلا أنّها تبقى واحدة من مجموعة عناصر ومؤسّسات مجتمعية شريكة ومؤثّرة وفاعلة في عملية تربية الإنسان ورسم ملامح شخصيّته، كشبكة وسائل الإعلام والتواصل والاتصال، والجمعيات الكشفية، والمحيط القريب والجيران، والأصدقاء، والمساجد، والأندية الرياضية... إلخ، وأهمّ من ذلك كلّه الأسرة والبيئة المنزلية والعائلية بالمعنى الأعم، فضلاً عن عناصر كثيرة عقّدت قدرة القيادة والتحكّم والسيطرة على العملية التربوية في عصرنا الحاضر.

ولهذا فإنّ تعريف التربية بشكل دقيق ومتكامل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار الأمرين التاليين:

**أولاً:** أن لا يقتصر على جعل متعلّق التربية هو "الصغير" أي "الطفل" فقط، كما قيّد ذلك في التعريف الأخير، لأنّ العملية التربوية وفق الرؤية الإسلامية مستدامة تبدأ من المهد وتستمر إلى اللحد، فتشمل تربية الكبار أيضاً. وقد تنبّه علي القائمي إلى هذه الملاحظة، حيث يقول: "لا تقتصر مدة التربية على دور الطفولة، بل يجب أن تستمر وتتواصل مع دور الصبا حتى آخر العمر"[1].

(1) القائمي، علي، الأسرة والطفل المشاكس، ص36.

**والثانية:** أن لا يحصر متعلّق التربية بالآخر فقط، لأنّ التربية الإسلامية ليست منحصرة في التربية الغيرية، بل تشمل التربية الذاتية، أي تربية الإنسان لنفسه وتهذيبه لذاته، وذلك لأنّ نقطة انطلاق العملية التربوية في الرؤية الإسلامية تبدأ من النفس والذات نحو الآخر.

بناءً عليه كانت الحاجة إلى منهج تربوي ثابت في أُصوله واضح في مقوماته وموازينه ضرورة من ضرورات الحركة التربوية، فهو الذي يرسم للتربية مسارها السليم المتوازن، ويحدّد لها معالم طريقها، ويوجّه الجهود والنشاطات والبرامج التربوية لتقرير المفاهيم والقيم الصالحة والسامية في الواقع الانساني.

لأنّ ما أفرزته تجارب الفكر المعاصر في الحقل التربوي من مناهج أدّى عن عمد أو عن خلل وتقصير إلى الوقوع في الكثير من المشكلات، ونقاط الفراغ التي لم تُملأ إلى الآن، بل ثبت بالدليل الواضح عدم صلاحيّة تلك المناهج لإثراء المسيرة الإنسانية بما ينسجم وفطرة الإنسان وتطلّعه نحو الكمال، واكتسابه لمنظومة القيم التي تضمن تربية الإنسان الصالح، والفاعل إيجاباً في تطوّر الحياة الإنسانية ورقيّ كيانها الاجتماعي. خصوصاً إذا ما كانت تلك المناهج قائمة على مفاهيم فلسفية غربية مبتنية على أساس النظرة القاصرة إلى الدين، والفهم الخاطىء لمكانة الإنسان وفلسفة وجوده.

ففي واقعنا الإسلامي اختلفت الأفكار والرؤى والتوجّهات في هذا المضمار، فمنها ما اعتمد على الدراسات الغربية النظرية والميدانية، دون بذل جهد للبحث عن منهج يعتمد على الأسس والمفاهيم والقيم الإسلامية. ومنها ما هذّب وشذّب لكي يرتدي مظهراً شرقياً وإسلامياً، دون الرجوع إلى أهل الاختصاص في العلوم الإسلامية، ومنها ما زاوج بين الدراسات الغربية والدراسات الشرقية النظرية والميدانية بما يلائم النظرة الشرقية للحياة والمجتمع. وهذا ما يعطينا صورةً واضحةً عن سبب إهمال المقوّمات

الحقيقية للمنهج التربوي؛ فطبيعة الإنسان، وفطرته، وميوله، وغرائزه، وحبّه لذاته، وما يعتريه من أدوار مختلفة من الطفولة إلى الهرم، ونوع ارتباطه مع العالم الخارجي، وفلسفته في الوجود، أمور خطيرة تفرض نفسها على واقع كل عملية تربوية، الأمر الذي يُفترض معه امتلاك المُقَنِّن التربوي الصورة الواضحة للنفس البشرية، وتشخيص مشاكلها بدقّة، مع الاحاطة بسائر العوامل الأساسية والثانوية المؤثرة في البناء التربوي.

وقد فات الكثير من الدراسات الرجوع إلى القرآن والسنة القولية والعملية الكفيل بتحديد معالم متكاملة وشاملة لمنهج تربوي يصلح أن يكون مرجعاً لجميع العلماء والباحثين والمتخصصين بشؤون التربية على اختلاف متبنياتهم العقائدية والفكرية؛ لأنّه المنهج الذي يصلح لكل زمان ومكان، لأنّه صادر عن الذي لا ينطق عن الهوى، ومرجعه إلى الله تعالى المحيط بسكنات الإنسان وحركاته، فهو من وضع خالق الإنسان لا من وضع الإنسان المحدود في فكره والمحدود في قواه العقلية والعلمية، وهو منهج واقعي يراعي واقع الإنسان فلا يحمّله ما لا يطيق، وهو منهج شمولي لايتحدد بجانب معين، ولا يبحث مجالاً دون آخر.

وعلى هذا الأساس فإنّ صياغة المنهج التربوي في بلداننا الإسلامية يجب أن تستند إلى مسلمات فكرية إيمانية، وأسس عقلانية راسخة ليتشكل بمجموعها الاطار الأساسي لذلك المنهج. ما يعني ضرورة استنطاق النص في صياغة كل منهج، لا سيما التربوي الذي يهدف إلى حراسة الأمة وحفظها من الانهيار، والقضاء على كل ما من شأنه أن يفسد على الناس فطرتهم أو يبعث على انحراف سلوكهم، أو يساعد على التواء سليقتهم، أو يعكّر نظرتهم وتفكيرهم، وبهذا ينسجم المنهج التربوي مع فطرة الله التي فطر الناس عليها جميعاً.

والحمد لله رب العالمين